نعم انتهى العام الدراسي فهل تسألنا عن الحصيلة؟ أكثر من مائتين وخمسين يوما دراسيا للمرحلتين الأساسية والثانوية والنتيجة أرقام في محصلات شهرية ونصفية ونهائية مقابل دوام وتنفيذ واجبات منزلية وسلوك وإجابات عن أسئلة الامتحانات في آخر العام، ومن ثم يمنح الطالب شهادة الانتقال إلى مستوى دراسي آخر يعيش فيه الطالب ذات الجولة.

هكذا تبدو الدورة السنوية الدراسية للطالب ، فما هي الإضافة التي تتحقق من عام إلى آخر على صعيد الخزين العلمي والمعرفي لدى الطلاب؟

مئات الآلاف من الطلاب والطالبات يجتازون كل عام امتحانات الثانوية العامة ويشير واقع الحال إلى أن الأيام الدراسية بكل ما تشتمل عليه لا تخرج بالنسبة للكثير من الطلاب عن كونها عملية روتينية ولذلك فإن ما يطرح يوميا من معلومات أثناء الممارسة التعليمية تظل طافية في أثير الفصول الدراسية ونادرا ما تعلق كمعلومات يتأسس عليها تفتق ذهني لخروج طاقات كامنة ولو مستقبلا.. يجري هذا مع بقاء المعلومة في ساحة ضيقة تنتظر يوم الامتحان.

تحقيق/ وديع العبسي

الطالب بين التحصيل العلمي وإحراز الشهادة

البعض يعيشون المراحل الدراسية وعينهم فقط على الدرجة الوظيفة

- معنيون : المطلوب خلق المحفزات لتغيير النظرة إلى التعلم

- التعلم لغرض الشهادة فقط ظاهرة موجودة نسعى لتصحيحها

ممر عبور

تحدثت مع عدد من الطلاب مركزا على المرحلة الثانوية وخرجت بذات الرؤية التي تخلص إلى اعتبارهم الدراسة ممر عبور إلى الوظيفة بالمعنى المجرد الذي لا يشير إلى أي إقبال استثنائي على التعليم يقتفي أثر النوابغ لتقديم إضافات علمية للبيئة المحلية ، ولعل هذا ما يفسر الفراغ الذي يعيشه واقعنا العلمي من هذه الطفرات أو هذه الإضافات .. قال زيد: «أكيد نحن نستفيد بدليل اننا ننجح»، وقال مصطفى «أهم شيء نحفظ الدروس من أجل الامتحان» ، ويقول نبيل «جميعنا عندما ننتهي من امتحان أي مادة ننسى كل ما فيها» ، أما عبد الله فيقول «نحن نتعلم والمهم ننجح».

تلك نماذج تبين ماهية الراسخ لدى الطلاب حول ما يعنيه اهتمام آبائهم والمجتمع والدولة بتعليمهم. ولذلك يقل التميز وتقل فرص أن يؤدي الفرز مع المراحل الدراسية المتوالية عن مخرجات استثنائية.

الملل والحمل الثقيل

تنقلت في استقراء الآراء بين أكثر من مستوى.. أصحاب خبرة، ومعنيين بالتوجيه والتوعية.

علي محمد عبد مدرس ثانوية عامة قال: خلال سنوات تدريسي لم أشعر بأن هناك طالبا يهتم باستيعاب المادة لأنه يريد أن يتقنها وإنما فقط لأجل الامتحان ولذلك عندما أفاجأهم بسؤال عن درس سابق نادراً ما أجد من يذكرها بعكس الحال لو أبلغتهم مثلاً بأن غداً سيكون امتحان أو مناقشة.

ويرى علي محمد بأن من أسباب عدم إقبال الطالب على التعليم بالصورة التي تترسخ معها في ذهنه ما يتلقاه من معلومات شعورهم بالملل الأمر الذي يجعلهم يشعرون بان التعليم حملا ثقيلا عليهم ما إن ينجزوا الامتحانات النهائية فيه حتى يصبح غريبا عنهم وكأنهم لم يتعلمونه.. ولذلك وحسب علي محمد لابد أن تكون الحياة الدراسية محفزة ومشجعة..ويمكن تحقيق ذلك من خلال الاهتمام بجانب الأنشطة سواء الفكرية أو الرياضية خلال العام، والتشجيع على التفوق ومكافأة المتفوقين كواحدة من أهم المحفزات التي يمكن أن تصل بنا إلى الهدف المطلوب ناهيك عن انها ستقلل من حالات التسرب.

تأثيرات لاحقة

«خلال الدراسة في المرحلة الثانوية غالباً ما يهتم الطلاب بالقسم الأسهل والأكثر توفيراً للوقت والجهد»..هذا ما يقوله عبد السلام محمد عبد العليم مدرس ومشرف اجتماعي بوزارة التربية والتعليم.. عبد العليم يذكر لنا ما يصور هذه العشوائية التي يتسم بها التعلم وما يؤكد ضيق الهدف في هذه العملية بحيث اقتصرت على إحراز الشهادة، إذ يقول «في كل عام أتعرف على طلاب من القسم العلمي في الثانوية العامة وأكتشف منهم أنهم لم يدخلوا هذا القسم عن قناعة وإنما شق منهم لأن آباءهم يريدون ذلك والشق الآخر لأنهم لم يجدوا فرصة للتسجيل في القسم الأدبي».

هذا الحال لا شك بأنه يعكس نفسه لاحقاً بشكل واضح عندما ينتقل الطالب للدراسة الجامعية حيث تبدأ الحيرة لحظتها تنسج حبائلها على قرار الطالب أو أبويه: إلى أي كلية يتجه؟.. ثم ما يلبث –الطالب– أن يكيف رغبته حسب ما هو متوافر عليه من شروط قبول (المعدل) ولأي كلية.. وإجمالا فإن ذلك يبين أي اتجاه تأخذه الرغبة في التعلم.

الشهادة المجردة

يؤكد محمد سنان الباحث بوزارة التربية والتعليم على حقيقة انتشار مثل هذه القناعات لدى الطلاب ويضيف: العملية متسلسلة فمن تخرج أولا لا يقدم نموذجاً لمن بعده وهكذا يبقى ذات الحال .. دراسة لمجرد الحصول على الشهادة ومن ثم الوظيفة دون أن يكون للتعليم معنى غير ذلك.. وأشار إلى أن الطلاب اكتسبوا هذه الفكرة من الثقافة السائدة التي تعزز ذلك سواء في البيت أو الشارع أو النادي الجميع تجدهم يرسخون –بحديثهم وتضييقهم لمنفعة العلم بالوظيفة– هذا المستوى من تعاطي الطالب مع الحياة العلمية.. وقال سنان: لابد أن تتعاون الأسرة والمدرسة في خلق نوع من العلاقة القائمة على الحب بين الطالب والتعلم، وترسيخ مدلول العلم وأثره وقيمته في التنمية الإنسانية.. من المهم أن نستعرض لهم دائما نماذج من العلماء والمفكرين حتى يخلق ذلك لديهم نوعا من الرغبة للاقتداء.. ولفت الانتباه إلى ضرورة الاهتمام باكتشاف المواهب أو أصحاب النزوع إلى الابتكار ومحاولة تنمية قدراتهم فمن خلال هؤلاء كما قال يمكن رفد المجتمع بشخصيات علمية وفكرية، وتقديم نماذج لآخرين من أجل الاهتمام بالعلم كبوابة حضارية وإنسانية إلى المستقبل.

الانفتاح على التعلم

وتشير الموجهة سوسن الشيباني في ورقة عمل إلى ضرورة مراجعة واقع العملية التعليمية والوقوف بجدية أمام إشكالياتها لإيجاد الحلول المناسبة لها .. وتؤكد الشيباني على أن الإستراتيجيات الوطنية في التعليم الأساسي والتعليم الثانوي تشتمل على رؤية موضوعية من شأنها التأثير إيجاباً في النشاط العلمي السنوي الذي يشهده العام الدراسي.. وتقول: من شأن تنفيذ مثل هذه الإستراتيجيات إلى جانب متطلبات أخرى تتعلق بالمنزل والمدرسة خلق البيئة المشجعة على اكتساب العلم باعتباره وقود التطور والتحديث .. وتشير الشيباني في ورقتها إلى أن البيئة المشجعة تعمل على تحقيق أمرين إما تكريس قدرة كامنة في ملكات الطالب أو تكوين واستكشاف هذه القدرة إذا ما كانت موجودة وإلى أي اتجاه تتجه، وهو ما يؤدي إلى تفاعل الطالب معه تلقائياً سواء خلال دراسته لأحد قسمي الثانوية العامة أو عند اتخاذ قرار الكلية المرغوب الالتحاق بها في الدراسة الجامعية.. مثل هذا الواقع –تقول الشيباني– إنه يساعد على الانفتاح على التعلم والاستفادة منه، كما يساعد على تمكين المستفيد من تحديد وبناء طموحه على أساس ذلك.

رأي آخر

أما محمد مرشد هائل–نائب مدير عام الإعلام والنشر التربوي بوزارة التربية والتعليم فله رؤية مغايرة فهو يعارض أي طرح يذهب إلى أن حاصل السنة الدراسية غالبا ما يكون اهتمامه بالشهادة إذ يقول في لقاء سابق: لست أبداً مع هذا الطرح لأنه ببساطة يعني بأنه ليس هناك من يحب العلم لغرض العلم وإنما هو يسعى للتعلم لغرض الحصول على الوظيفة فقط وهذا كلام غير صحيح ولا أعتقد أنه يعكس الواقع بشكل سليم وموضوعية وبرؤية واضحة ومنطقية.. ويضيف: لا ننكر بأن هناك نماذج من الناس تدفع بسلوكها إلى تكوين مثل هذه النظرة وهي ترتبط ببعض الناس الذين تحاصرهم ظروف معيشتهم الصعبة والذين يهتمون بتوجيه أبنائهم للبحث عن الوظيفة فور التخرج من الثانوية العامة والحصول على الشهادة لأن الأب لا يستطيع تحمل تكاليف الدراسة الجامعية، ولذلك صار هذا الاهتمام حرصاً وأدى هذا الحرص بالتالي إلى الاعتقاد بأن المهم بالنسبة لدى هؤلاء سواء الطلاب وحتى أبائهم هو الشهادة من أجل الحصول على الوظيفة إنما لا نستطيع القول بأن الناس جميعهم على هذا الشكل، ومع ذلك أيضا فإن نسبة هؤلاء الذين يسعون إلى الشهادة فقط وليس العلم بدأت تنحسر، ولعلك تلاحظ مثلاً أن هناك طلابا ما أن ينتهوا من البكالوريوس حتى يتجهوا مباشرة إلى التحضير للماجستير وليس إلى البحث عن الوظيفة.

وسيلة وليست غاية

ويؤكد محمد هائل بأنه لابد من التوعية في أوساط الناس بأن العلم ليس له نهاية وأن الوظيفة ليست غاية في حد ذاتها وإنما هي وسيلة للعيش في هذه الحياة ، وحتى إذا لم تتوفر الوظيفة فهذا لا يعني أن عجلة التنمية ستتوقف.. يوصي نائب مدير عام الإعلام والنشر التربوي الطالب أن يتطلع باستمرار لما هو أعلى فذلك هو ما سيوجد الوظيفة كما أنه ليس صحيحاً أنه عند الحصول على الوظيفة ينتهي كل شيء.. وأضاف: أعتقد أنه لو تم اعتماد مبدأ الأكفأ والأفضل علمياً لشغل المنصب فإن ذلك سيخلق حافزا لدى الطلاب على الاستمرار في التعليم.. ويخلص محمد هائل إلى القول: أنا لا أتفق مع من يرى بأن الطلاب ينسون كل شيء فور الانتهاء من الامتحان ربما هناك نسبة يحدث معها هذا الأمر ولذلك فإن معالجة هذا الأمر يكون من خلال وجود مراكز تقوية للطلاب أثناء الإجازة تضمن استمرار التحصيل العلمي للطلاب.